ليبيا فى أقدم عصورها

بحث تاريخى يعتمد على النصوص المصرية القديمة

للدكتور / عبد المنعم أبو بكر

كلنا يعرف الجهود الجبارة التى بذلها العلماء لدراسة حضارة شعوب الشرق القديم ، وهى جهود ترجع فى بدايتها الى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وقد استطاع علماء التاريخ والآثار تتبع تطور الحضارات فى كل من مصر وغربى آسيا منذ ظهور الانسان العاقل وبدأ حضارته فى العصر الحجرى القديم حتى آخر العصور ، وكلنا يعرف أيضا أن هذه الدراسات تملأ مجلدات عديدة تصل الى الألف ولقد اتسعت هذه الدراسات الى درجة أن أصبح من العسير على الدارس أن يلم بها واضطر الى التخصص الدقيق مثل المتخصص فى اللغة أو التاريخ أو الحضارة أو الديانة بل أكثر من هذا اضطر بعض الدارسين أن يحصروا تخصيصهم هذا فى فترة بعينها ، فهناك المتخصص فى عصر ما قبل التاريخ وهناك من يتخصص فى الألف الرابع قبل الميلاد أو الثالث وهلم جرا •

ومن الغريب حقا أن مناطق أفريقيا الشمالية لم تحظ بدراسات أثرية الا بالنسبة الى عصور ما قبل التاريخ ويقف الدارس مكتوف الأيدى عندما يقرأ فى كتب التاريخ أن شعوب هذه المنطقة الشاسعة بقيت فى المستوى الحضارى للعصر الحجرى الحديث حتى بدء القرن التاسع قبل الميلاد وذلك عندما أخذ الفينيقيون اقامة مراكز تجارية متفرقة على طول الساحل الشمالى لافريقيا وخاصة عندما أنشأوا مدينة قرطاجة •

ويدهش الدارس للحضارات القديمة للقلة الواضحة بالنسبة الى تاريخ ليبيا القديمة فنحن نعتقد أن أولئك الذين حطوا رحلهم على شاطىء النيل فى جزئه الأدنى وهو الجزء الذى عرف فى التاريخ باسم « مصر » كانوا ولا شك من المجموعات البشرية التى تحركت متجولة فى مناطق ليبيا وشمالى أفريقيا طوال العصر الحجرى القديم ثم الحديث وهذه المجموعات البشرية هى التى وضعت الأسس الأولى للحضارة المصرية القديمة • ومن المعروف أن الانسان المصرى منذ الألف السادس قبل الميلاد أخذ يضع اللبنة بعد اللبنة فى بناء صرح حضارته ولقد كان بناء شامخا استطاع بعد مضى ألفين من الأعوام أن يبدأ عصره التاريخى متكاملا فى مظاهر حضارته ثم أخذ يقفز قدما فى مضمار الحضارة على النحو الذى نعرفه جميعا •

ومن الغريب حقا أن المؤرخ لا يستطيع كتابة تاريخ ليبيا فى أقدم عصورها اعتمادا على الحقائق التى كشفت عنها جهود الأثريين العاملين فى ليبيا ، ونحن نعرف أن الآثار العظيمة التى تم الكشف عنها ترجع فى معظمها الى العصرين اليونانى والرومانى وأن القلة الباقية ترجع الى العصر

الفنيقى ، حقيقة أن الزائر يقف مشدوها أمام هذه الآثار سواء فى شحات أو لبدة وصبراتة فهى تقف شامخة تحدث أجيالنا بأمجاد الماضى ، ونحن نحمد الله على العناية الفائقة التى تبذلها دائرة الآثار الليبية بهذه الآثار ، فهى توالى ترميمها وابرازها فى أجمل اطار هذه غير النشرات العلمية الأنيقة التى تنشرها للتعريف بكنهها وماتعنيه لنا ، انه مجهود ضخم جبار ورائد فى هذا المجال وانى أنتهز هذه الفرصة لأهنىء الزملاء من رجال دائرة الآثار على جهودهم هذه وأرجو لهم باستمرار التوفيق فى عملهم • ولكن نحن نتساءل ماذا كان يحدث فى ليبيا قبل ذلك وأين مقار أهلها الذين ولا شك كانوا يتمتعون بحضارة متقدمة جعلتهم من حين لآخر يبرزون فى المجال الدولى وخاصة بالنسبة الى علاقاتهم مع الشقيقة مصر •

ماذا كانت ثقافاتهم وما هى عقائدهم وتقاليدهم ، وأين هو انتاجهم الفنى هذه أمور لا نعرف عنها الا القليل ولا يزال المؤرخ ينتظر الكشف عنها على أيدى رجال الآثار وبعد تنقيبات واسعة ، حقيقة هناك منطقة فى جنوب ليبيا وفى اقليم فزان بالذات وأقصد بها منطقة « جرمة » القديمة حيث قامت بعض البعثات بنشاط أثرى ، بل قامت ادارة الآثار الليبية بتكملة ما قامت به هذه البعثات ، ولكن هذه الكشوف لا تزال تحتاج الى الكثير من المتابعة والدراسة •

واذا كان المؤرخ يقف مكتوف الأيدى أمام القلة الواضحة من المعلومات فى المراجع الأصلية عن تاريخ ليبيا فى أقدم العصور ، الا أن هناك شعاع من الضوء تلقيه المصادر المصرية القديمة على هذا التاريخ ، اذ أن النصوص المصرية أخذت تذكر ليبيا منذ فجر التاريخ ، تارة بتفصيل ، وتارة أخرى فى عبارات مقتضبة • ولكن يجب علينا أن نقرر بأن ما ورد عن ليبيا فى هذه المصادر المصرية ، لا يكفى لكتابة تاريخ مفصل عنها فى أقدم عصورها وكل ما يمكن أن نقدمه هو بعض المعلومات عن القبائل الليبية التى عاصرت التاريخ المصرى ، والتى دفعتها ظروفها أن تدخل فى المجال المصرى سواء كان هذا المجال سياسيا أو حضاريا •

لست أود فى حديثى أن أتابع ظهور الانسان منذ البدء أى منذ عصر البليستوسين الذى كثر الجدل عن تاريخه — مثل انسان جاوه وانسان بكين وانسان نيادرتال ، ولكن يحسن أن نبدأ الحديث منذ ظهور الانسان العاقل الذى أجمعت الآراء أنه هو الجد الأول للبشرية التى تملأ الأرض حاليا ، وأكاد أعتقد أن فترة ظهوره ترجع الى ثلاثين ألف سنة قبل الميلاد ، أى فى أواخر العصر الجيولوجى الرابع للكرة الأرضية المعروف باسم « عصر البليستوسين » ، ولقد اتفق العلماء على اطلاق اسم العصر الحجرى القديم على حضارة هذا الانسان واتفقوا أيضا على تقسيم هذا العصر الى ثلاث مراحل هى العصر الحجرى القديم الأسفل ثم العصر الحجرى القديم الأوسط ثم العصر الحجرى القديم الأعلى •

ومن المتفق عليه أن هذا العصر تميز بتقلبات جوية قاسية ، فبينما كانت أوربا قد دخلت فى عصر جليدى نجد أن مناطق شمال أفريقيا كانت تتمتع بمناخ دافىء وأمطار غزيرة حولتها الى بيئة مليئة بالغابات والبحيرات والمستنقعات تعج بقطعان الماشية والحيوانات الضارية ثم بالانسان الأول الذى رتب حياته على قنص الحيوان وجمع الحبوب والتقاط ثمار الأشجار • ولقد تطلبت هذه الحياة صنع أدوات حجرية أو عظمية تعاون الانسان على تنفيذ رغباته وكذلك الدفاع بها عن نفسه •

وعثر الأثريون فى كثير من مناطق شمالى أفريقيا على آثار الانسان الأول منتشرة من المغرب الأقصى فى الغرب الى حدود مصر فى الشرق ،وفى ليبيا بالذات عثر على بقايا الانسان الأول فى العصر الحجرى القديم فى موقع وادى درنة وكهف « هوافطيح » وتميزت المرحلة الأخيرة من العصر الحجرى القديم وهى المعروفة باسم العصر الحجرى القديم الأعلى بتقدم واضح فى صناعة الأدوات الحجرية وتتمثل بانتاج أسلحة حجرية دقيقة تعرف باسم الأدوات المكروليتية microlithic وهى صغيرة الحجم دقيقة الصنع سهلة الحمل بدلا من الأسلحة والأدوات الكبيرة الحجم والثقيلة• وتمثلت هذه الحضارة فى عدد من المواقع المنتشرة من منطقة الجبل الأخضر فى ليبيا حتى ساحل المحيط الأطلسى •وبالنسبة الى منطقة الجبل الأخضر عثر العلماء على ثلاثة مواقع رئيسية هى :

١ — كهف حقفة الطير الذى يبعد عن بنى غازى بما يزيد على الـ ٢٠ كم •

٢ — كهف حقفة الضبع — ثم (٣) كهف هوافطيح •

وتعارف العلماء على أن المجموعات البشرية التى عاشت فى مناطق شمال أفريقيا متجولة ومعتمدة فى حياتها على القنص والجمع والالتقاط تنتمى الى الجنس الحامى ومن الشعوب القديمة التى انتمت الى هذا الجنس مصر — ليبيا — تونس — والجزائر والمغرب ، ثم قبائل المازوى التى سكنت المرتفعات السودانية الى الشرق وهم أجداد ما نعرفهم اليوم باسم قبائل البشارين ثم أهل بلاد بونت التى كثر الجدال على موقعها ولو أن البعض يرى منهم أجداد القبائل الحامية المعروفة حاليا باسم الصومالى والجالا والماساتى وينتمى أيضا الى الجنس الحامى تلك القبائل التى عاشت قديما فى الصحراء الشرقية والتى أطلق عليهم المصريون القدماء « أبونيتو » ثم ينتمى الى هذا الجنس أهل النوبة العليا والنوبة السفلى •

وحوالى الألف السادس قبل الميلاد حدث تغير ضخم فى المناخ السائد بمناطق شمالى أفريقيا ، اذ بدأ العصر المطير ينتهى وأخذت الأمطار تقل وفى نفس الوقت تعرضت هذه القبائل الى جفاف أخذ يحول البيئة الى صحراوات ممتدة • ومعنى هذا أن الحيوان وحشى والانسان أخذ يهاجر الى مناطق أخرى صالحة لحياته وكان وادى النيل من أهم هذه المناطق الجديدة خاصة ولأن النيل طوال آلاف السنين التى استغرقتها فترات العصر الحجرى القديم لم يكن قد حفر مجراه تماما وكانت مياهه وخاصة فى فترة الفيضان تغطى مساحات واسعة وممتدة الى الغرب وكان الانسان الأول يرتاد هذه المناطق أثناء تجوله وراء الصيد ومما يدل على ذلك تلك الكميات الضخمة من أدواته الحجرية الخشنة الصنع التى عثر عليها علماء ما قبل التاريخ فى أماكن فى بطن الصحراء الغربية وهى كانت فى ذلك الحين ولا شك أرضا تتمتع ببيئة مليئة بالأحواش والمستنقعات وحيوان الصيد فاخذت جماعات ضخمة من الانسان تحط على شواطئه وبدأت عصرا جديدا فى حياتها من أهم مميزاته الاستقرار فى أوطان صغيرة والقيام بالزراعة واستئناس الحيوان • لم يحدث هذا فقط فى شمال افريقيا ، بل دلت الأبحاث أن الاستقرار البشرى وبدء الزراعة انتشر حوالى هذا العصر أى منذ الألف السادس قبل الميلاد فى مناطق متعددة من الشرق القديم نضرب لذلك مثلا — فى مصر — مرمده — بنى سلالة — الفيوم والعمرى ودير تاسا وفى شمالى العراق تل جارمو وتل حسونه ثم فى فلسطين جريكو وفى سوريا « العمق » وسيالك فى الهضبة الايرانية •

ونحن نعتبر انتقال الانسان من حياة التجول المستمر بحثا وراء حيوان يصيده ومحاولة منه للعثور على الحبوب البرية والتقاط ثمار الأشجار ، الى حياة تقوم على الاستقرار ومزاولة الزراعة وخزن الحبوب ، نعتبر هذه النقلة بمثابة بداية لعصر جديد هو العصر الحجرى الحديث، الذى كان بمثابة ثورة حاسمة فى تاريخ البشرية اذ تطورت حياة الانسان تطورا حاسما فى المجالات المادية والفكرية نتيجة استقراره وتحكمه فى البيئة وفهمه الصادق للمقومات البيئية وربط حياته بمختلف امكانياتها •

ولقد ثبت أن الانسان الليبى قد ترك آثارا واضحة فى منطقة الجبل الأخضر تدل على استقراره وانه أقام حياته على الزراعة والانتاج بل قام أيضا بصناعة الفخار فى أشكال وأحجام تتفق مع حياته الجديدة ونتيجة للبحوث المختلفة التى قامت بها Caton - Ibompson نجد التشابه الكبير بين الآثار التى تركها الانسان الليبى سواء فى كهف هوافتيح أو الى الغرب منه فمثلا فى آثار ققصه ، وبين آثار منطقة مرمده والفيوم والواحات المصرية • ومن هنا نكاد نعتقد أن الانسان الأول الذى رحل الى وادى النيل الأسفل واستقر على شاطئه وأقام حياة الاستقرار أتى اليها من الغرب ، أتى بأدواته الحجرية المكروليثية ، وأقام صناعة فخار يتميز بلونه الأسود وعناصر زخرافية غائرة تمتد فى خطوط متوازية وهو النوع المصرى المعروف باسم

"Black incised pottery-."

لقد ظل الجدل عن الأصول الأولى للحضارة المصرية القديمة وهى الأصول التى وضعت بذرتها منذ عصر الاستقرار ابان العصر الحجرى الحديث ويقوم الجدل على مدى التأثير الحامى فى هذه الحضارة ، وهى التأثير التى لا بد وأن دخل مصر مع المجموعات البشرية التى هاجرت اليها آتية من الشمال الشرقى فى بدء العصر الحجرى الحديث .

ليس من شك فى أن المصرى الذى بدأ حضارة العصر الحجرى الحديث كان ينتمى الى الجنس الذى انتشر فى مناطق شمال أفريقيا ،وهو الجنس الحامى حقيقة أن هناك بعض الاختلافات بين حضارة الدلتا ممثلة فى آثار مرمده بنى سلامه والعمرى والفيوم ، وبين أهل مصر العليا ممثلة فى آثار ديرتاسا والبدارى ونقاده الأولى ولكن يجب أن نعترف أن هذا الاختلاف قد نتج عن تميز كل مجموعة عن الأخرى بطريقتها فى الحياة فبينما أهل الدلتا عاشوا على الزراعة المستقرة نجد أن أهل مصر العليا فضلوا رعى الماشية وتربيتها . ولعلنا نحسن صنعا اذا قلنا فى تفسير الاختلاف بين حضارتى المجموعتين اللتين سكنتا مصر فى العصر الحجرى الحديث ، انه الاختلاف بين القبائل التى تسكن جبال أطلس حاليا (وتتمثل فيهم أصحاب حضارة مرمده والحضارات القريبة منها) وبين قبائل البشارين التى تجوب صحراء النوبة أو الصوماليين فى الحبشة (وتتمثل فيهم أصحاب حضارتى البدارى ونقاده الأولى) . لقد كانت مصر فى هذا العصر جزءا من أفريقيا ، بل هى بالذات الجدار الحامى للحضارة الافريقية الذى يعتبر الحد الشرقى لها واذا كانت هناك بعض عناصر من الحضارة السومبرية قد ظهرت فى الحضارة المصرية فليس هنا ما يدعو الى الاعتقاد بأن مصر أنجبت حضارة كان السومريون أصلها .

نحن لا يمكن أن نفكر ذلك التأثير الواضح فى الحضارة المصرية الذى حدث فى العصر التالى وهو عصر حضارة نقاده الثانى ، وأن هذا التأثير أتى من مناطق تقع الى الشرق منها أى من فلسطين بالذات ، ولقد أظهرت أعمال الحفر التى تمت فى فلسطين منذ فترة طويلة مدى هذه العلاقات ، مما يدل على أن بعض الجماعات التى كانت تتحدث بلغة « سامية » وقد وصلت الى مصر ، واستقرت فى مناطق شرق الدلتا وعلى أن لغتهم هى التى ساعدت على اعطاء اللغة المصرية شكلها النهائى . ولقد أثبت العالم تسيلارتس Tillarts المتخصص فى اللغات الحامية والمصرية القديمة أن يثبت أن اللغة المصرية القديمة فى تكوينها الذى ظهرت به منذ بدأ العصر التاريخى أى منذ ٣٢٠٠ ق.م تقوم على العناصر اللغوية الآتية :

(أ) العنصر الحامى الخاص بالنحسيين الذين سكنوا شرقى أفريقيا .

(ب) العنصر الحامى الخاص بأهل البربر الذين سكنوا شمال أفريقيا .

(ج) العنصر السامى الخاص بمن سكنوا غربى آسيا ، ثم استقروا فى شرقى الدلتا .

واذا كان الأمر كذلك فان حضارة نقاده الثانية ذات الطابع المصرى الحامى بحت ، بل أكثر من هذا فاننا اذا نظرنا الى آلهة مصر فى عصورها الأولى فلا نستطيع الا أن نذكر نوعين منها ما أظهرته الرسوم المصرية اما على هيئة حيوانية أو على هيئة بشرية كاملة . ونحن نعتبر النوع الأول أى المعبودات التى يرمز اليها بحيوانات هى مصرية بحته ولا بد أن تكون قد نشأت فى فكرتها الأولى فى محيط تلك الحضارة الحامية الافريقية ولقد عثر على رسوم لآلهة مثلث رؤوسها على هيئة رؤوس الحيوان منقوشة على سطوح التلال الصخرية فى شمال أفريقيا وبخاصة فى فزان .

أما النوع الثانى فمن الآلهة التى ظهرت على هيئة بشرية كاملة فواضح أنه ظهر فى منطقة شرق الدلتا وواضح أيضا أنها ظهرت فى بيئة نخيل أهلها آلهتهم بشكل مختلف ولعل التأثير فى ذلك يرجع الى مناطق آسيا الغربية ويبدو أن هذا النوع من الآلهة لم يكن محليا ، أى أن خواصها لم تتصل بمظاهر معينة فى مكان بعينه بل كانت تمثل بعض أجزاء الطبيعة مثل الأرض والسماء .

وكما نعلم أن الغالبية العظمى من آلهة مصر كانت ممثلة على هيئة حيوانية ، ومن هذا يمكن أيضا تأكيدا للحقيقة الواقعة بأن القواعد الأولى للحضارة المصرية التى بدأت منذ عصور فجر التاريخ كانت كلها تتصل عن قرب بشمال أفريقيا وكان أصحابها ينتمون الى الجنس الحامى .

بل أكثر من هذا أعتقد ان ما تميزت به الحضارة المصرية من تقديس واضح لكل مايرسمه الفنان أو ينحته على هيئة بشرية وأعتقد ان هذه الظاهرة أتت مع الانسان الأول الذى استقر فى مصر قادما من الغرب حيث نجد ما تركه من صور مرسومة أو منقوشة على جدران كهوفه أو على سطوح التلال الحجرية تمثل الحيوان الذى كان يعيش على صيده ومن الواضح ان هذا الانسان اعتقد ان تصويره لهذا الحيوان سيؤثر عليه ويجعله أسهل وقوعا فى قبضته اذ كانت الصورة تحوى قوة سحرية مؤثرة على ما تمثله ، وهذا اعتقده المصرى فيما بعد فكانت الصورة منقوشة أو منحوتة تمثل صاحبها وتعتبر جزءا لا يتجزأ منه حتى اذا أراد ايذاء صاحبها فكان عليه أن يهشم الصورة أو التمثال .

وهذه الظاهرة استقرت فى أذهان المصريين وآرثين اياها من أجدادهم الذين مارسوا عمليات الصيد فى مناطق ليبيا وشمال أفريقيا الواسعة .

ونعود الآن الى السؤال الذى طرحناه سابقا ، وهو أين كان أهل أفريقيا الشمالية وماهى حضارتهم وعقائدهم وتقاليدهم منذ العصر التاريخى لمصر أى منذ أواخر الألف الرابع ثم كيف نستطيع أن نفهم ما تذهب اليه كتب التاريخ بأن أهل ليبيا وشمال أفريقيا لم يستطيعوا الانتقال

من مرحلة حضارة العصر الحجرى الحديث الى المرحلة التاريخية الا فى القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد وذلك عندما أخذ الفينقيون يشيدون مخطاتهم التجارية على طول هذا الساحل فى حين أن النصوص المصرية القديمة تذكر الكثير عن أهل ليبيا .

من أجل هذا سيتضمن حديثى عن ليبيا سردا لهذه المعلومات منذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد أو منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد وسأبدأ بالحديث عن التحنو .

المرة الأولى التى تتقابل فيها مع شعب التحنو كانت فى وثيقة ترجع الى عصر الملك «العقرب» الذى نعتقد انه حكم مصر قبيل الوحدة التى أقامها الملك مينا نعرمر أى قبل عام ٣٢٠٠ ق.م هذه الوثيقة عبارة عن جزء من لوحة اردوازية تحوى أربعة صفوف مرسومة الصف العلوى يمثل ثيران ثم الثانى يمثل حمير والثالث يمثل أغنام والرابع يمثل أشجار وبجانب هذا الصف الأخير نجد كلمة « تحنو » وهذا يعنى ولاشك ان هذه المجموعة من الحيوان ثم الأشجار تميز أرض « التحنو » .

بعد ذلك نجد أثرا آخرا يرجع الى عصر سـيتاث ـ نعرمر يذكر التحنو أما الأثر الثالث فيرجع الى عصر الملك ساحورع من الأسرة الخامسة ويتكون من منظر كبير تهشم منه جزء يذكر التحنو ولعل الأثر الرابع هو أهم ما وردالينا من عصر الأسرة السادسة من الدولة القديمة اذ أن أجزاء كثيرة من المنظر لاتزال باقية وتوضح لنا أولا نفس الأنواع من الحيوان التى وردت على اللوحة الاردوازية عن عصر الملك العقرب أى الثيران والحمير والأغنام ولو أن هناك ازادة لنوع رابع وهى المعيز ثم هناك أيضا تمثيل كامل لأهل التحنو نعرف منه الزى المميز لهم . ويتكون هذا الزى من شريطين عريضين (غالبا من الجلد) يتقابلان فوق الصدر فى حين انهما يتدليان عمودية فوق الظهر من الكتفين ثم يتجهان عند الوسط الى الأمام يلتقيان فوق البطن حيث يثبت الطرفان ونجد عند هذا المكان يتدلى كيس عبارة عن جعبة من الجلد تحوى عضو التذكير غير هذا نجد أن الرجال قد ثبتوا عند الوسط وفوق الظهر ذيل حيوان هو الثور أما شعورهم فقد كانت مصففة بحيث تبدو وقد ارتفعت فوق الرأس وتدلت على أكتافهم من الخلف فى حين يتركوا خصلة منها فوق الجبين .

لقد لفت الكثيرون النظر الى ظاهرتين واضحتين فى هذا الزى وهما أولا ذيل الحيوان الذى تدلى من وسطهم خلف ظهورهم الأمر الذى حرص كل ملك مصرى أن يقوم به حتما أصبح ذيل الثور من الرموز الملكية المصرية ، أما الظاهرة الثانية فهى الجعبة الجلدية لوضع عضو التذكير قد أظهرت كثيرا على الآثار المصرية ، فى العصور الأولى يستعملها المصريون بل هناك أمثلة من عصر

متأخر تظهر فى هذه الجعبة مع آلهة مصرية ، مثل آلهة النيل والآله بتاح والآله جب غير هذا فقد حاول البعض أن يروا فى خصلة الشعر المتدلية فوق جبين الرجال من التحنو صورة تعود بناء الى العادة المصرية من وضع ثعبان الصل على الجبين ، بل يؤكد هذا البعض ان مارسمه المصرى لرجل التحنو لم يكن خصلة شعر بل كان هو الصل الذى كان من أهم الرموز الملكية المقدسة •

لقد أكد المؤرخ الكبير « ادوارد ماير » ان كل هذه الشواهد تدل على أن التحنو والمصريين كانوا فى الأصل من أرومة واحدة وان أولئك الذين استقروا على شاطىء النيل استمروا محتفظين بالكثير من عاداتهم وتقاليدهم •

ومما يلفت النظر ان المصرى القديم أطلق على حكام الأقاليم الأجنبية كلمتين هما « حكا » وتعنى الكلمة « حاكم » أو « ور » وتعنى عظيم وقد حرص المصرى على أن يطلق على عظماء التحنو كلمة « حاتى — عا » وهى نفس الكلمة التى أطلقوها على أمراء البيت المالك المصرى وبعد ذلك على عظماء الدولة ، بل أن كلمة « تحن » نفسها تعنى كذلك فى اللغة « اللامع المضىء » واشتق منها كلمة « تجنت » وتعنى القاشانى (أى الفيانس) وكذلك الزجاج ويرى الكثيرون ان كلمة تحنو تعنى بالذات أرض الزجاج أو أرض القاشانى وعلينا أن نأخذ بأن صناعة الزجاج والقاشانى فى مصر كانت من الصناعات التى نشأت عند التحنو •

واذا أردنا أن نعين المناطق التى سكنها التحنو منذ أقدم الأزمنة فهى كانت ولاشك الى الغرب من مصر انها كانت تمتد من الشمال الى منطقة الفيوم جنوبا ومن أهم المراكز التجمع كانت ولا شك منطقة برقة ، الا أننا نلاحظ منذ عصر الأسرة الحادية عشر ، ان هذه المنطقة كانت جغرافيا تسمى « تمحو » ولكن أهلها كانوا من « التحنو » ويصلنا على ذلك نص تركه الملك « منتو — حونت » من الأسرة الحادية عشر يذكر فيه التحنو من أرض التحنو • وبعد ذلك نجد فى قصة « سنوهى » ان الملك « امنحيت الأول » أرسل ابنه سنوسرت الى أرض « التمحو » لكى يهدى من ثورة التحنو •

ولكن ندهش حقيقة عندما نقرأ فى نص تركته الملكة حتشبسوت انها استوردت عدد ٧٠٠ من ايقاب الفيل من بلاد التحنو ، وهذا يعنى ان مدلول هذا التعريف جغرافيا أخذ يختلف بحيث انه امتد جنوبا امتدادا كبيرا ويدلنا على ذلك أيضا نص فى مقبرة حاكم عنيبة « بن — نون » من الأسرة العشرون الذى كان قد أقام تمثالا كبيرا للملك رمسيس السادس فى معبد الدر (ببلاد النوبة) وأوقف أراضى كثيرة للصرف من عائدها على القرابين التى تقدم لهذا التمثال ومن بينها احدى مناطق التحنو ، التى لابد وانها كانت على مقربة من عنيبة فى بلاد النوبة •

ولقد حدث أن أخذت النصوص المصرية تذكر منذ الأسرة السادسة شعبا جديدا يسكن مناطق ليبيا واسمه شعب « التمحو » ذكر هـذا الاسم الأول مرة فى نص « أونى » من عصر الملك بيبى الأول ، على أساس انه استعان بفرقة حربية من أرض التمحو أضافها الى جيشه الكبير الذى أخذ يدربه لمهاجمة بعض المغيرين على مصر من الشمال الشرقى .

أما المرة الثانية فكانت من عصر الملك «نرع» الذى خلف بيبى الأول على العرش ، وورد اسم التمحو فى نص « حرخوف » أمير البقانيين أذكر أنه خرج فى رحلته الثالثة التى كما تعرف قام بها فى سلسلة رحلاته لاستكشاف المناطق التى تقع الى الجنوب من النوبة السفلى وأنه وصل الى بلاد يام ، فوجد يدها متغيبا وعلم أنه رحل الى بلاد التمحو على رأس حملة لمحاربته فى مواطنهم التى تقع فى الركن الغربى من السماء وسارع حرخوف لكى يلحق به ووصل الى بلاد التمحو واستطاع أن يهدى الطرفين وساد السلام بينهما .

ومن هذين النصين نعتقد أن بلاد التمحو كانت تقع ولا شك الى الغرب من مصر وأنها كانت تمتد جنوبا الى أقصى بلاد النوبة اذ يشفق الكثيرون أن موقع بلاد يام هو عند الجندل الثانى أو الى الجنوب منه قليلا .

ويتميز التمحو بأنهم ينتمون الى جنس أبيض شعورهم صفراء وعيونهم زرقاء أى هم الأجداد الأول لأحفادهم المنتشرين حاليا فى شمال أفريقيا والمعروفين بقبائل البربر ، وعلى هذا فهم يختلفون من ناحية السلالة مع التحنو الذين صدرتهم الرسوم المصرية بلون أحمر قانى وشعر مدول أسود ، أى كانوا يشبهون المصريين تماما بل يشبهون جميع الحامين المنتشرين فى كثير من مناطق أفريقيا الوسطى والشمالية .

واذا كانت النصوص المصرية لم تذكر اسم التمحو قبل الأسرة السادسة الا أن هناك من عصر الملك خوفو (ثانى ملوك الأسرة الرابعة) تسجيلا رائعا لاحدى بنات التمحو . أقصد بذلك مقبرة الأمير مرسعنخ الثالثه حيث يأخذ منظرا يمثلها مع أمها « حوتب حرس » الثانية التى تتميز بلون جسدها الأصفر الفاتح وشعرها الأصفر الداكن الذى يبدو ذهبيا وعيونها الزرقاء . وغير هذا فنجدها مرتدية ملابس تختلف عن ملابس سيدات مصر ، وملابسها عبارة عن رداء ضيق يكسو جسدها ، أبيض اللون ويغطى كتفاها كمان يرتفعان بنهاية مدببة لم نلتق بمثيل له مطلقا فى تسجيلات الدولة القديمة ، بما يؤكد أنه ينتمى الى مجتمع غير مصرى ومن نفس العصر (عصر الملك خوفو) نجد مقبرة أخرى للايدخوفو خع أى ابن الملك خوفو ، تمثله يقف الى جانب أمه (وفى هذه الحركة تكون احدى زوجات خوفو) وهى ترتدى نفس الرداء حوبت حرس الثانية سالفة الذكر غير هذا نجد الأمير الملكى يلبس النقبة المعروفة ولكن تتدلى من وسط الحزام

رأس حتحور ، كما أنه يزين جسده الأعلى بشريطين من الجلد يتقابلان فى وسط الصدر ، وذكرنا هذا الرداء بما كان التحنو يرتدونه ، اذن فقد تقابل المصرى مع التمحو بشكل ما منذ عصر الأسرة الرابعة حوالى عام ٢٨٠٠ ق٠ م ٠

والآن من هم التمحو ومن أين أتوا ولقدقام جدل طويل حول هاتين النقطتين ولازال الجدل قائما فهناك الكثير من القرائن التى تعارض فكرة ، ان التمحو كانوا من قبائل الفندال التى وصلت عبر أسبانيا الى شمال أفريقيا ، على أساس أن ظهورهم فى مصر منذ القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد يسبق بكثير أى وجود لهذه القبائل ٠

وهناك من يقول بأن هؤلاء القوم ينتمون الى الجنس المعبريشيرانى أى جنس حوض البحر الأبيض المتوسط ثم هناك من يقول بأنهم أهل شمال أفريقيا من البيض وأن أولئك الذين ظهروا بعد ذلك بألوان أجسادهم الحمراء وشعورهم السوداء مثل التحنو فى ليبيا والصومال والجالا وأهل بنت فى شرقى أفريقيا فهذا يرجع الى التغيير الفسيولوجى الذى يحدث تحت تأثير المناخ الحار وأن الجسد والشعر مكتسبان من حرارة الجو ووهج الشمس هذا اللون للجسد والشعر لحماية الانسان ٠

واذا كان الجدل لايزال قائما عن الجنس الذى انتمى اليه التمحو ، فهناك جدل طريف عن معنى الاسم فالبعض يؤكد ان الكلمة المصرية تمحو تعود فى أصلها الى الاسم الليبى لهذه القبائل الذى نطقه اليونان Avipmaxivai وان الاسم الأصلى كان « دورماخ » وأن المصريين القدماء نطقوه مشوها « تويماخ » على أساس أن الراء انقلبت الى ياء وأصبح بعد ذلك تيماح والجمع تيمحو وأن الأصل فى «دورماخ» يجد سندا له فى الاسم الذى ذكره Frobinius للقبيلة التى يتميز أهلها بلونهم الأبيض وشعور هم الصفراء واسم القبيلة Athermak وجمعها Ithemaken ويؤكد البعض الآخر أن كلمة تمح وجمعها تمحو تشتق أصلا من كلمة تا-مح أى الأرض الشمالية عند المصريين ٠

وعلى كل ليس من شك فى أنهم قد انتشروا فى مناطق أفريقيا الشمالية وبخاصة فى ليبيا منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد وان جماعات منهم تقدموا نحو الشرق واستقروا فى الواحات المصرية بل أيضا فى منطقة الفيوم غير هذا فقد لعب التمحو دورا رئيسيا فى مناطق النوبة السفلى ابان العصر الذى تلى الدولة القديمة أى عصر الاضمحلال الأول ، استطاعوا بعد استقرارهم هناك أن يقيموا حضارة تتميز بمظاهر جديدة عديدة ، منها أسلوب المقبرة ذات البناء المستدير الذى يعلو سطح الأرض ، وانتشار الأوانى الفخارية حول المقبرة وفوق سطح الأرض من النوع الذى يمكن أن نسميه الفخار الأحمر ذى الزخارف الغائرة ، وانتشار استعمال الجلد فى

ملابس القوم ، ثم فى انتشار تقديس البقرة عندأهل النوبة . هذه الحضارة الجديدة فى بلاد النوبة هى المعروفة باسم حضارة المجموعة الثالية Group Culture ولقد بدأت منذ الأسرة السادسة واستمرت حتى بدء الأسرة الثامنةعشر

وقامت المقارنات المختلفة بين الآثار المكتشفة فى بعض مناطق أفريقيا الشمالية وبين تلك التى خلفها انسان النوبة فى عصر الحضارةللمجموعة الثالية ، ووصل الدارسون الى المطابقة الواضحة بين آثار أهل ليمكواد عندموريتانيا وآثار أهل النوبة ، ثم أيضا المطابقة الواضحة بين الفخار الذى عثر عليه فى الصحراءعند منطقة « وادى الهوا » على مقربة من الحدود الجنوبية لجمهورية ليبيا ، وفخار أهل النوبة ،وفى نهاية الأمر المطابقة التشريحية من جماجم أهل حضارة المجموعة الثالية وجماجم بعض القبائل البربرية فى شمال أفريقيا .

ومن الغريب حقا أننا لم نعثر على وثائق كثيرة تتحدث عن أهل ليبيا أبان عصر الدولة الوسطى وهو العصر الذى يبدأ حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م وينتهى حوالى عام ١٧٠٠ ق.م ولسنا ندرى السبب الحقيقى لهذا ، فى حين كنا ننتظر تقدما واضحا فى العلاقات على أساس الكشوف الكثيرة التى تلقت ذلك فى مناطق الواحات طوال عصر الاضمحلال الأول الذى يقع كما تعلمون فيما بين انتهاء الدولة القديمة وبدء الدولة الوسطى .

يود البعض أن يرى فى الكلاب الخمسة المنقوشة صورهم مع سيدهم الأمير أنتف من الأسرة الحادية عشرة الطيبية التى تبدأ بها عصر الدولة الوسطى ، يرى هؤلاء البعض أن الأسماء التى أعطيت لهذه الكلاب غير مصرية ومن الطريف أن كاتبها التجأ الى تعريف الاسم وما يعنيه باللغة المصرية ومن هذه الأسماء نجد اسمين من الأسماء الليبية :

الأول : بككاوى ويعنى الغزال .

الثانى : تكرو ويعنى الطبق المسمى حنفت .

غير هذا فقد ورد اسم « تحنو » على جدران معبد الملك متوحوبت الثانى (أيضا الأسرة ١١) فى منطقة الدير البحرى على الشاطىء الغربى من النيل .

ثم هناك فى منطقة « هير » بمصر الوسطى مقبرة للمدعى « سبنى » حاكم مقاطعة القوصية الذى عاش فى عصر الملك أمنحيت الأول (أول ملوك الأسرة الثانية عشرة) ولقد صور هذا الحاكم ومعه ابنه فى منظر للصيد وكلاهما قد استعملا الجعبة الجلدية التى تحفظ عضو التذكير ثم نجد أن « سبنى » نفسه قد غطى صوره بالشريطين المتعارضين تماما كما كان أهل التمحو يفعلون . ولذلك نعتقد أن سبنى الذى وصل الى وظيفة حاكم مقاطعة ينتمى الى أسرة ليبية وانه كان يحافظ على الأسلوب الليبى فى ملابسه ، وفى عصر الملك « أمنحيت » الأول أخرج ابنه وخليفته سنوسرت الى ليبيا ليهدىء الأحوال بين التمحو كما ورد فى قصة سنوهى .

وأخيرا نجد نصا منقوشا فى منطقة وادى الحمامات فى الصحراء الشرقية كتبه المدعو « خاى » فى عصر الملك سنومرت الثالث (من الأسرة الثانية عشرة) يذكر فيه وصول الهدايا الثمينة من بلاد التمحو •

وبعد انتهاء الدولة الوسطى وقعت مصر مغلوبة على أمرها فريسة غزوة قاسية شنها عليها الهكسوس ونحن ندرى أن هذه الغزوة حدثت حوالى ١٧٠٠ ق•م• ولكن المصريين حرروا بلادهم حوالى ١٥٦٠ ق•م وفى هذه الفترة ولاشك صمتت النصوص المصرية تماما عن ذكر أى شىء عن جيران مصر فى ليبيا • ولو أن هناك ما يثبت الاستقرار الكبير للتمحو فى بلاد النوبة وعملهم المستمر على تقوية مراكزهم هناك حتى أن ملك الهكسوس المدعو « أبوفيس » أرسل الى زعيمهم يدعوه الى التحالف معه ومهاجمة مصر من الجنوب ووعد اياه بالسماح له بحكم مصر معه مناصفة • هذا الحادث ذكره الملك كامش على لوحة حجرية كبيرة عثر عليها عام ١٩٥٤ م فى الكرنك ، وأنه (أى كامش) قبض على رسول ملك الهكسوس الذى كان قد حاول الوصول الى بلاد النوبة عن طريق الواحات •

بدأنا نسمع منذ أوائل عصر الدولة الحديثة عن جيراننا فى الغرب من مصر تحت اسم Rebu أو « ليبو » أى الليبيين ، ويبدو أن قبائل الليبيين كانت مستقرة فى المناطق التى تقع للغرب من تلك التى كانوا يعيشوا فيها التمحو ومن الواضح أن المصريين فى غالب الأمر لم يفرقوا فى نصوصهم بين الأسماء الثلاثة فكثيرا ماذكروا التحنو والتمحو والريبو على أنهم أولئك الذين يعيشون فى المناطق الواقعة الى الغرب من الدلتا وفى برقة وفى الواحات المصرية ومنذ عصر الملك شحوش الثالث بدأنا نسمع عن المشواش على أنهم أيضا من أهل ليبيا •

لقد مرت سنون الأسرة الثامنة عشرة دون أحداث تدل على علاقات ودية بين مصر وليبيا اللهم ما ذكره أحمس بن نخبت عن رحلة قام بها الى بلاد كحك وكانت ولاشك من المناطق القريبة من الواحات المصرية ولدينا نص من الأسرة التاسعة عشرة وفى عهد الملك رمسيس الثانى على وجه التحديد (أقصد بذلك النص الوارد على البداية المعروفة باسم بردية انسقاسى رقم (١) ان احدى فرق الجيش المصرى وعدد أفرادها خمسة آلاف جندى كانت تحوى ٨٦٠٠ جندى من الكحك ، مائة جندى من المشواش وهذا يدل على أن المصريين فى ذلك العصر قد اعتمدوا فى دفاعهم عن وطنهم بجنود من الكحك والمشواش •

لقد شهد الشرق القديم أحداثا كبارا فى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد وذلك عندما تحركت أعداد ضخمة من القبائل الهندو أوروبية من أوطانها فى المناطق الشمالية من آسيا الوسطى متجهة نحو الغرب ووصلت الى بلاد البلقان وأنزلت الرعب والذعر فى نفوس سكانها الأمينة وبدأت هجرات مذعورة تجتاح مناطق غرب آسيا وكما تقول النصوص القديمة حمل الناس أفراد أسرهم وحاجياتهم على عربات ثقيلة وتحركوا فى أفواج ضخمة عبر آسيا الصغرى ونزلوا الى سوريا وفلسطين وقصفوا بذلك على دولة الحتين ووصلوا الى الدلتا من الشمال الغربى . هؤلاء هم شعوب البحر الذين وصلوا أيضا الى شمال أفريقيا فى سفنهم واستقروا هناك فترة من الزمن ثم هاجموا مصر من الغرب متحدين مع بعض قبائل المشاوش .

ونحن نعرف عن التاريخ ان هذه لم تكن الهجرة الأولى لأقوام الهندووأروبية ، فقد سبقتها هجرة عارمة نزلت فى بلاد الشرق القديم واسقطت دولا واقامت دولا أخرى ونعرف أيضا انهم كانوا قساة القلوب لا يعرفون الرحمة وعلى كل فقد شيدوا دولة الكاسية فى العراق واشور فى شمال العراق ودولة الميتانيين فى المنطقة التى تمتد من أعالى الفرات حتى البحر المتوسط ، ونعرف ان فلولا منهم استقرت فى سوريا وفلسطين وانهم هاجموا مصر فى القرن السابع عشر قبل الميلاد تحت اسم الهكسوس .

لقد نجح الزعماء الليبيون أن يجمعوا تحت امرتهم مجموعات كبيرة من هذه القبائل واتجهت الأنظار الى أرض أخرى تصلح لتكون وطنا جديدا لهم وهى الدلتا وبالفعل وصلوا الى حدود مصر الغربية فى عصر الملك مرنبتاح بن رمسيس الثانى ، ولكن محاولتهم فشلت ولو الى حين ، واعادوا الكرة مرة أخرى فى عصر رمسيس الثالث وعادوا الى مصر فى تحركات ضخمة جمعت فرق من الليبيين والمشاوش ومن خمسة اقوام ممن ينتمون الى شعوب البحر وهى الاخيميين ، ثم اللوكاوهم اللوكيين ثم الشروان ولعلهم السردانيين ، والقورشا ولعلهم الاوترسكيين والتكنى ولعلهم الصقليين . واستطاع رمسيس الثالث أن يحبط المحاولة أيضا فى معركتين الأولى فى السنة الخامسة من حكمه والثانية فى السنة الحادية عشر .

ليس من شك ان هذه القوة العارمة التى التقى بها المصريون سواء فى عصر مرنبتاح أو عصر رمسيس الثالث ان دلت على شىء فهى تدل على أنها كانت قوة منظمة لشعب قد وصل فى حضارته الى درجة من التقدم تخرج به من حيز حضارة العصر الحجرى الحديث الى حضارة عصر تاريخى . وليس من المعقول قطعا ان نأخذ بما يكتبه المؤرخون من ان العصر التاريخى لليبيا يبدأ منذ استقرار الاغريق فى برقة والفنيقيين فى طرابلس . أى ان العصر التاريخى لا يبدأ الا من القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد .

نحن ندري من الاستقرار الذى قامت بهجماعات من الهندوأروبية في الشرق القديم ان الزعامة كانت لهم باستمرار ، سواء في العراق أو في بلاد الأنضول أو حتى الهكسوس عندما دخلوا مصر دلت الأبحاث ان الزعامة بينهم كانت فى أيدى الهندواوربيين ولكننا هنا نجد أن الزعامة كانت فى أيدى الليبيين وان قبائل شعوب البحر كانت تابعة لها ، وان دل ذلك على شيء فهو يدل على ان الليبيين كانوا على حضارة أجبرت شعوب البحر على أن يدين لهم بالزعامة .

كيف نستطيع أن نغفل أن الاستقرار الليبى الذى حدث فى بعض مناطق مصر والذي أدى الى أن يتمتع بعض الليبيين بنفوذ قوى مكن اجدادها من أن سيتولي أحد أبنائها عرش مصروتبأ الأسرة الثانية والعشرين ان هذه الأسر تنحدر من شعب متحضير قوى ، خاصة وأن أفرادها كانوا باستمراريعتزون بأصلهم ويتمسكون بلقبهم « ما » وهو اختصار المياشواش ، ولا يجب أيضا أن نغفل السياسة التي اتبعها ششن في علاقته بالدولة اذ تدل على تفهم كبير وسعة أفق ومهارة فائقة .

أحب هنا أن أذكر ما كان يحدث فى السودان فى هذه الفترة ، وأن استقرار آخر لبعض قبائل التمحو الجنوبيين تركز هناك واستطاع أحدهم أن يتولى الزعامة هناك واستقر فى نباتا وتمكن فيما بعد أن يفتح مصر ويكون فيها الأسرة الخامسة والعشرين .

بل هناك أيضا تلك القبائل القوية التى ظهرت فى التاريخ منذ القرن الأول الميلادى أقصيد بهم قبائل « النوبات » ونعتقد أن موطنهم كان الواحات الغربية من الخارجة فى الشمال الى واحة سليمة فى الجنوب ولقد حاول الرومان الاستعانة بهم ضد قبائل البليميز الذين اقصفوا مضاجعهم منذ القرن الثانى الميلادى وأخذوا على عاتقهم بعض الملكه كانداكي ان ينهوا الاحتلال الرومانى في بلاد النوبة السفلى ونجحوا فى ذلك الى درجة أنهم كانوا يهاجمون ايران والمدن الواقعة الى الشمال منهم ، فاتى الرومان الى قبائل النوباد ولكن هؤلاء اتحدوا فى البلاميز وجعلوا الحياة للرومان فى بلاد النوبة مستحيلة حتى أتى الامبراطور جوستنيان الى اغلاق معبد فيلا وهو المقر المقدس الذى جمع كلمتهم تحت راية المعبودة ايزيس .

هؤلاء النوباد كانوا ولا شك من الليبيين الجنوبيين أعود فاقول ان ما ذكرته النصوص المصرية عن ليبيا لا يكفى مطلقا لكتيابة تاريخ لهذه البلاد فى عصورها الأولى ، ولكن فى نفس الوقت يكاد ينبض بمعلومات شتى تدل على أن هذه المنطقة كانت مأهولة بقبائل شتى لعبت دورا

هاما فى الحضارة البشرية منذ أول التاريخ ويمكن ان تتتبع النشاط الحضارى لأهل ليبيا منذ عصور الحقبة الأولى أى منذ العصر الحجرى القديم ثم العصر الحجرى الحديث ثم فى العصور التاريخية .

ولكن علينا مرة أخرى أن تتساءل — أين تركزت هذه القبائل وأين مخلفاتهم الأثرية ...؟ هذه مسئولية زملائنا من علماء الآثار فى ليبيا اتوجه اليهم بالرجاء فى أن يعملوا جاهدين للكشف عن هذه المواقع ونرجو لهم فى ذلك كل النجاح تشجعنا على ذلك تلك الأعمال الكبيرة التى يقوم بها هؤلاء الزملاء فى كل مناطق ليبيا الأثرية وما نلمسه فيهم من تفانى كبير فى أداء واجبهم الوطنى والقومى لابراز أمجاد بلادهم فى أجمل اطار وعلى الله قصد السبيل والسلام ،،،،




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی